أسس الدعوة عند الملامتية

بقلم

فوزي عبد العظيم سلامة

مدرس مساعد بقسم الدعوة

ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بمدينة نيسابور بخراسان فرقة من فرق الصوفية أطلق عليها اسم الملامتية أو الملامية أسسها رجال من أصدق رجال الطريق في ذلك القرن الذي امتاز في تاريخ التصوف الإسلامي بالورع والتقوى الحقيقيين ، كما امتاز بقوة العاطفة الدينية ، وجهاد النفس العنيف ومحاربتها ومحاسبتها على كل ما فرط منها . وما يحتمل أن يفرط منها .

وليس مسلك الملامتية إلا صورة من صور الزهد الغالبة في ذلك العهد ولا أقول من صور التصوف ، لأن مسلك الملامتية مسلك عملي من أوله إلى آخره ، ومجموعة من الآداب يقصد بها مجاهدة النفس ورياضتها ، مجاهدة ورياضة تؤديان بالسالك إلى إنكار الذات ، ومحو علائم الغرور الإنساني ، وإطفاء جذوة الرياء في القلب ، أكثر من تأديتهما إلى أحوال الجذب ، والمحو ، والفناء ، والإتصال ، والسكر ، والمشاهدة ، والجمع ، وما شاكل ذلك من أحوال ومقامات تكلم فيها غيرهم من الصوفية ، بل إن كانت ميزة يمتاز بها مذهب الملامتية حقا ، فهي محاربتهم في تعاليمهم كل مظاهر التصوف السابقة ، ومحاولتهم الرجوع بالزهد الإسلامي إلى سيرته الأولى .

والملامية — أو الملامتية على غير قياس — اسم مشتق من الملامة التي

هى بخع وتأنيب للنفس ، وليس ببعيد أن يكون اسم الملامتية متصلا ببعض الآيات القرآنية التى ورد فيها ذكر اللوم كقوله تعالى . « ولا أقسم بالنفس اللوامة »(١) وقوله : « يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »(٢)

فإن الآية الأولى تعلى من شأن النفس اللائمة لصاحبها ، المؤنبة المحاسبة له على كل ما يصدر منه ، وهى النفس الكاملة فى إصلاح الملامتى ، وتذكر الآية الثانية من صفات عباد الله الذين يحبهم ويحبونه ، أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، وأنهم فى جهادهم فى سبيل الله وإخلاصهم فى ذلك الجهاد لا يخافون فى الله لومة لائم ولا يكترثون بمدح الناس وذمهم .

وإذا فهمنا الجهاد بالمعنى الصوفى أو الملامتى — أعنى جهاد النفس — أدركنا أن الآية تشير إلى أخص صفات الملامتية وأنها تصلح لأن تتخذ أساساً لمذهبهم وتكون مصدراً لإسمهم .

ومما يعزز هذا الغرض قول حمدون القصار وهو من أكابر مشايخهم وأول مؤسس فرقتهم ، وقد سئل عن طريق الملامة فقال : « ترك التزين للخلق بحال ، وترك طلب رضاهم فى نوع من الأخلاق والأحوال ، وألا يأخذك فى الله لومة لائم »(٣) .

وقد اختص بهذا الاسم (الملامتية) أهل خراسان ، يقول السهروردى صاحب عوارف المعارف ، ولم يزل فى خراسان منهم طائفة ومشايخ يهدون أسامهم : ويعرفونهم شروط حالهم ، وقد رأينا فى العراق من

---

(١) القيامة ٢

(٢) المائدة ٥٤

(٣) رسالة الملامتية : نسخة خطية بدار الكتب المصرية تحت عنوان (أصول الملامتية وغلطات الصوفية) رقم ١٧٨ تصوف

يسلك هذا المسلك ، ولكن لم يشتهر بهذا الاسم وقلما تتداول ألسنة أهل العراق هذا الاسم(١)

ولكن ما المراد بالملامة التى ينتسب إليها الملامتية ؟ أهى لوم الملامتى نفسه ؟ أم هى لوم النفس إياه ؟ أم لوم الملامتى الدنيا وأهلها ؟ أما لوم الدنيا فليس من نظام الملامتية فى شىء لأن فى تعاليمهم الصريحة النهى عن الدنيا ، رأى أبو حفص النيسابورى بعض أصحابه وهو يذم الدنيا وأهلها فقال ظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذه ولا تصاحبنا «(٢)

أما المعنيان الآخران فيدخلان فى جوهر الفكرة الملامتية ؛ فلامة النفس وملامة الغير ، تشير عبارة أبى حفص وقد سئل عن مذهبه فقال : أهل الملامة قوم قاموا مع الحق تعالى على حفظ أوقاتهم ومراعاة أسرارهم فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب والعبادات ، وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه وكتموا عنهم محاسنهم فلامهم الخلق على ظواهرهم ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم «(٣) وهذا أكمل تعريف للفكرة الأساسية فى المذهب الملامتى

والملامتية فرقة متميزة من فرق زهاد المسلمين ، لها طابعها الخاص وحياتها الروحية الخاصة بالرغم من أنهم يعتبرون عادة من بين طوائف الصوفية ، وقد تنبه إلى الفروق الواضحة بين الملامتى والصوفى بعض رجال التصوف ومؤرخيهم ، فأشار إليها السلمى فى رسالته وابن عربى فى فتوحاته والسهروردى فى عوارف المعارف

أما السلمى : فيقسم أرباب العلوم والأحوال — أى العلم الظاهر والعلم الباطن — أو أهل الرسوم وأهل الحقائق إلى ثلاثة أقسام : علماء الشريعة المشتغلين بظواهر الأحكام وهؤلاء هم الفقهاء ، وأهـــل المعرفة بالله المنقطعين إلى الله الزاهدين فيما فيه الخلق من أسباب الدنيا الذين جعلوا همهم فى الله فكانوا له وبه وإليه ؛ وهؤلاء هم الصوفية .

(١) عوارف المعارف ص ٥٥ (٢) رسالة الملامتية (٣) نفس المرجع

والطائفة الثالثة هم الذين زين الله بواطنهم بالقرب والإتصال به ، فلم يكن للإفتراق إليهم سبيل . وقد غار الحق عليهم لئلا يعرف الخلق أحوالهم فأظهر للخلق منهم صفاتهم الظاهرة التى تدل على معنى الافتراق لكى يسلم لهم حالهم معه تعالى ، وجعل من أسنى أحوالهم ألا يؤثر باطنهم فى ظاهرهم لئلا يفتتن بهم الناس وهؤلاء هم الملامتية .

فالصوفية مع الله أشبه بموسى عليه السلام لما ظهر أثر باطنه فى ظاهره عندما كلمه ربه فلم يطق أحد النظر إليه ، والملامتية مع الله أشبه بمحمد عليه السلام لم يؤثر باطنه فى ظاهره بعد ما ناله من القرب والدنو عندما رفع إلى المحل الأعلى ، فلما رجع إلى الخلق تكلم معهم فى أمور دنياهم كما لو كان واحداً منهم وهذا أكمل العبودية(١) .

أما ابن عربى : فيستعمل إسم الملامتية فى معنى أوسع بكثير مما يفهمه السلمى ، فهو لا يدل عنده على طائفة معينة من طوائف الزهاد ولا يشير إلى وجهة نظر معينة فى الدين ، أو فى حياة الطريق الصوفى ، بل هو إسم لصنف من أهل الله يعيشون فى كل زمان ومكان ، لهم صفات خاصة يتميزون بها عن غيرهم يزدون وينقصون بحسب الوقت الذى يظهرون فيـــه .

وليس موطنهم خراسان ولا نيسابور ولا شيخهم حمدونا القصار ، ولا أبا حفص أو أبا عثمان الحيرى ، على الرغم من أنه يذكر من مشايخ نيسابور ممن تحقق بمقام الملامتية حمدونا القصار خاصة . كما يذكر من بين من تحقق بهذا المقام أبا سعيد الخراز ، وأبا يزيد البسطامى ، وأبا السعود ابن شبل ، وعبد القادر الجيلانى وغيرهم من مشايخ الصوفية على

---

(١) نفس المرجع

إختلاف طبقاتهم وبلادهم ، ويعد نفسه واحداً منهم إذيقول: وهو (أى مقام الملامتية) حالنا(١) .

ويقسم ابن عربى السالكين إلى الله إلى ثلاثة أقسام : العباد ، الصوفية، الملامتية .

والملامتية هم رجال قطعهم الله إليه وصانهم صيانة الغيرة، عليهم لئلا تمتد إليهم عين فتشغلهم عن الله . وقد إنفردوا مع الله راسخين لا يتزلزلون عن عبوديتهم طرفة عين ، لا يعرفون للرياسة طعماً لاستيلاء الربوبية على قلوبهم . وليس ثم من حاز مقام الفتوه والخلق مع الله دون غيره سوى هؤلاء »(٢) .

وإليك هذا البيان عن أهل الملامة كما أورده السلمى فى رسالته فيقول محدداً أصول دعوتهم :

١ — من أصولهم أنهم رأوا التزين بشىء من العبادات فى الظواهر شركا والتزين بشىء من الأحوال فى الباطن إرتداداً .

٢ — ومن أصولهم قضاء الحقوق وترك إقتضاء الحقوق .

٣ — ومن أصولهم أن الغفلة هى التى أطلقت للخلق النظر فى أفعالهم وأحوالهم ، ولو عاينوا أماناً من الحق إليهم لاستحقروا ما يبدو منهم فى جميع الأحوال ، وإستصغروا ما لهم فى جنب ما عليهم .

٤ — ومن أصولهم مقابلة من يجفوهم بالحلم ، والاحتمال والخضوع

---

(١) الفتوحات المكية حـ ٢ ص ٢١ ، حـ ٣ ص ٤٤

(٢) الفتوحات المكية حـ ٣ ص ٤٥ — ٤٦ ، حـ ٢ ص ٢٢

والاعتذار والإحسان دون مقابلتهم بمثل ذلك ، وأصلهم فى ذلك قول الله عز وجل لنبيه ﷺ : « أدفع بالتى هى أحسن »(١) .

٥ — ومن أصولهم إتهام النفس فى جميع الأحوال،أقبلت أم أدبرت، أطاعت أم عصيت وقلة الرضا عنها ، والميل إليها بحال .

٦ — ومن أصولهم ألا يقبلوا ما يفتح عليهم بعز ويسألوا بذل ، حتى إن أحدهم يسأل عن ذلك فيقول : فى السؤال ذل ، وفى المفتوح عز ، وإنا لا نأكل إلا بذل لأنه ليس فى العبودية تعزز .

٧ — ومن أصولهم أن الأذكار أربعة : ذكر باللسان، وذكر بالقلب، وذكر بالسر وذكر بالروح ، فإذا صح ذكر الروح سكت السر والقلب عن الذكر . وذلك ذكر المشاهدة وإذا صح ذكر السر سكت القلب والروح عن الذكر ، وذلك ذكر الهيبة ، وإذا صح ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر وذلك ذكر الآلاء والنعماء ، وإذا غفل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر وذلك ذكر العادة .

٨ — ومن أصولهم : مخالفة لذة الطاعات فإن لها سموماً قاتلة .

٩ — ومن أصولهم تعظيم ما لله عندهم من جميع الوجوه ، وتصغير ما يبدو منهم من الموافقات والطاعات وملازمة حدهم مع الله من غير قصد من إستنباط فى قول أو اظهار ما يجب كتمه من الأحوال .

١٠ — ومما يشبه أصولهم ما ذكره التسترى أنه قال : ليس للمؤمن نفس ، لأن نفسه ذهبت قبل له ، فأين ذهبت نفسه ؟ قال فى المبايعة :

---

(١) المؤمنون ٩٦

قال الله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة »(١) .

١١ — ومن أصولهم : أن حسن الظن بالله غاية المعرفة ، وسوء الظن بالنفس أصل المعرفة بها .

١٢ — ومن أصولهم : أن كل عمل وطاعة وقعت عليه رؤيتك واستحسنته من نفسك فذلك باطل .

١٣ — ومن أصولهم : رؤية تقصير أنفسهم ، ورؤية عذر الخلق فيما هم فيه .

١٤ — ومن أصولهم أن أصل العبادة شيئان : حسن الافتقار إلى الله عز وجل : وهذا من باطن الأحوال ، وحسن القدوة برسول الله ﷺ وهو الذى ليس فيه للنفس نفس ولا راحة .

١٥ — ومن أصولهم : ترك الكلام فى العلم والمباهاة به وإظهار أسرار الله منه عند غير أهله .

١٦ — ومن أصولهم أن النظر إلى العمل والعجب به من قلة العقل ، ورعونة الطبع كيف تفتخر بما ليس لك فيه شىء ، وما يجرى من الغير إليه نسبة عارية ، وفى الحقيقة ليس لك معه نسبة ، لأنك مدبر فيه ، ومجبور عليه ، وهل الافتخار بهذا الأمر إلا من قلة العقل ورعونة الطبع ؟ وقد قال ﷺ : المتشبع بما يعط كلابس ثوبى زور .

١٧ — ومن أصولهم من كثر علمه قل عمله ، ومن قل علمه ، كثر عمله ،

(١) التوبة ١١١

قال أبو حفص : معناه من كثر عليه إستقل كثير عمله ، لعلمه بتقصيره فيه، ومن قل عليه إستكثر قليل عمله لقلة رؤية التقصير فيه والعيب .

١٨ — ومن أصولهم فى التوكل : حسبك من التوكل ألا ترى ناظراً غيره ، ولا لرزقك جالباً غيره ، ولا لعملك شاهداً غيره .

قال أبو عبد الرحمن السلمى رحمه الله بينت فى هذه الفصول التى تقدمت من منثور كلام مشايخهم وأئمتهم من ظاهر أصولهم ما نسأل الله تعالى ألا يحرمنا بركاته(١) .

مما ذكرناه عن نظرة الملامتية إلى النفس ومنزلتها ظهر لنا أن لهم هدفاً واحداً يرمون إليه ، وهو صدق المعاملة مع الله ، ذلك الصدق الذى لا يتحقق إلا بتصحيح الأحوال والمقامات والذى لا يتم إلا إذا إمحى كل أثر — ظاهر أو خفى — من آثار الرياء ، ولذلك أنطوى ذلك الأصل من أصولهم على معظم تعاليمهم وكان بمثابة حجر الزاوية فى بناء مذهبهم .

وقد يتساءل عن الصفة أو الصفات التى امتاز بها مذهب الملامتية من غيره ، وجوابنا عن ذلك أن الإتجاه الملامتى فى التصوف لم يتميز عن غيره من الإتجاهات الأخرى إلا فى الأمور الآتية :

أولا : فى جملته : أى من حيث أنه مذهب له وحدة خاصة وصبغة معينة لا فى تفاصيل المسائل الواردة فيه ، والإقلال ياء ، والإخلاص والصدق ، والعبودية وما إلى ذلك معان نراها عند الصوفية على إختلاف طبقاتهم ، فالذى يمتاز به الملامتى هو تأليف وحدة منسجمة من هذه المعانى التى لا توجد

---

(١) نسخة خطية بدار الكتب (أشرنا إليها)

فى مذاهب غير الملامتية إلا فى صور فردية غير ملتئمة ، ثم محاولة تطبيق هذه المعانى ، وتطبيقها فى الحياة العملية ، ولا أدرى لغير الملامتية نظاماً محكماً متسقاً يرمى إلى إنكار الذات ومحو آثار النفس كنظامهم .

ثانياً : فيما فهمه الملامتية من المصطلحات الصوفية من معان سلبية، وهذه النواحى السلبية هى المقصودة فى الطريق الملامتى ، لأنها موضع المجاهدة والمحاربة ، أما المعانى الإيجابية فأمور يلقيها الله فى القلب إلقاء على سبيل المنة والفضل ، فالملامتى لا يكتسب الإخلاص أو الصدق فى طريقه ، لأن الإخلاص والصدق صفتان يمنحهما الله للسالك إليه إذا زال هو بمجاهدته ورياضته عوائق الإخلاص والصدق ، أى إذا داوم على اتهام نفسه وعلى محاربة ريائه وعجبه .

ثالثاً : فى ذلك المنظار الأسود الذى نظروا إلى النفس من خلاله ، وأنكروا عليها كل حسنة من حسناتها ، وسلبوها وجودها الحقيق وإرادتها وعلمها ، وحرموها كل لذة حتى لذة الطاعات ، وكل فكرة حتى فكرة حب الله أو القرب منه وحسبوها جديرة بكل شر وإثم وقبح ، وهذه نظرة لا شك فى أنها غير إسلامية ، قال تعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » (١) .

ويقول أيضاً « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » (٢) .

وإذا كان الملامتية قد أعلنوا الحرب على الرياء فى الأعمال والأحوال

---

(١) الشمس ٧ — ١٠ .

(٢) الفجر ٢٧ — ٣٠ .

والعلوم ، فإن حربهم ضد الدعاوى أشد وأظهر ، لذلك لا تراهم يدعون لأنفسهم عبادة ولا صلاحاً ولا تقــوى ، ولا خشوعاً ، ولا ورعاً ، ولا زهداً ، ولا فقرا ، ولا ولاية ، ولا كرامة ولاحباً لله ، ولا وصولا إليه ، ولاحلولا ولافناء فيه ولا ألوهية ولا تخلقا بصفات الألوهية ولاأية صفة تميزهم عن سائر الخلق .

فأين صوفية اليوم من هذه الأسس العامة لكل متحقق يريد أن يزكى نفسه ويطهرها من الصفات السلبية ويترق بها إلى الصفات الإيجابية ولله در القائل :

فقوم النفس بالعلوم لترق وذر الكل فهى للكل بيت
فإنما النفس كالزجاجة والحكمة سراج ونور الله زيت
فإذا أشرقت فإنك حى وإذا أظلمت فإنك ميت

قال ابن عطاء الله : أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها ، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه فأى علم لعالم يرضى عن نفسه وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه (١) .

بهذا المسلك محو أنفسهم ونجوا من مهالكها ، ومع ذلك عدوا أنفسهم من العاصين إذا علموا بأنهم سيطروا على أنفسهم ؛ فالنفس عندهم مقابلة لله ، فرؤية أفعالها وتعظيمها والإرتكان إليها بمثابة الإشراك بالله ، فحسن الظن بالله غاية المعرفة وسوء الظن بالنفس أصل المعرفة بها .

---

(١) شرح الحكم لابن عطاء الله السكندرى — للإمام ابن عباد ص ٣٠ ، ٣١ .

فنهجهم ليس بالسهل الميسور لكل إنسان فهم قــلة نادرة حفظوا حدود ربهم والتزموا أوامره، وشقوا على أنفسهم بالمجاهدة للوصول لرضا الحق . ومع ذلك وقفوا على باب الرجاء .

قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله : قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » ، ومع ذلك فهم فى كل زمان ومكان .